قصصُ الأطفالِ – هيمنَةُ الواقعِ ، ورُؤَى المُستقبلِ

م.د.سليم ضيول قاسم
كلية الإمام الكاظم عليه السلام/ أقسام ذي قار
lecdhi72@alkadhum-col.edu.iq
Saleem dhuyool gasim

المُلخّص

يتناولُ هذا البحثُ مادّةً ثريّةً مِن موادِّ أدبِ الطّفولةِ، وهِي أدبُ القصّةِ، ومدَى مَا يَعكسُه مِن دوافِع انغماسِ المُبدعينَ الذين وجّهُوا جهودَهم إليهِ؛ لِمَا لهُ مِن أثرٍ بَارزٍ في مُحاكاةِ حالِ مُجتمعِ الطّفلِ، وتفاصيلِ بِناءِ شخصيّتِه، ودَورِه المَنوطِ بِه في حاضرِه ومُستقبلِه، مُستشرفًا مُستقبَل أدبِ القِصّةِ المُوجَّهةِ للطّفلِ فِي مراحلِه العُمريّةِ المُتباينةِ، وَأهمِّ التحوُّلاتِ الفنيّةِ الّتي بلورت عبْرَ مدياتِ الزّمنِ صورةَ قِصّةِ الطفلِ، وانتقالاتِها المُعبِّرةِ عن قُدرتِها علَى التّماسِّ معَ الوقائعِ والأحداثِ الّتي أسهمت بِدَورِها في حداثتِها وتطوُّرِها، بِمَا بَوَّأهَا تلكَ المكانةَ بينَ أجناسِ أدبِ الطّفلِ في عصرِنا هذا.

كلمات مفتاحية : قصص الاطفال ، مستقبل

Children's stories - the dominance of reality and visions of the future

L.Dr. Salim Dhiul Qasim
Imam Al-Kadhim College, peace be upon him, Dhi Qar departments
lecdhi72@alkadhum-col.edu.iq
Saleem dhuyool gasim

Abstract

This research deals with a rich material from children's literature, namely the genre of children's stories, and the extent to which it reflects the motivations of the creators who directed their efforts towards it. This is due to its significant influence in simulating the state of the child's society, the details of building the child's character, and its role in his present and future. It anticipates the future of children's story literature in its various age stages and the most important artistic transformations that have crystallized the image of children's stories over time, as well as their expressive transitions that demonstrate their ability to connect with the facts and events that have contributed to their modernization and development, thus positioning them among the various genres of children's literature in our era.

Keywords: children's stories, future

مُشكلةُ البحثِ:

لَم تَزل تقِفُ كثيرٌ مِن العَقباتِ في مواجهةِ أيّ دراسةٍ ذاتِ بالٍ في مَيدانِ الأدبِ ونَقدِه، مهما توفَّرت لَهَا المصادرُ، وتيسَّر على الباحثِ تناولُ مادّتِها، وكانت أبرزُ المُشكلاتِ الّتي واجهتني في تقصّي مادّةِ هذه الدّراسةِ صعوبةُ التّعاملِ معَها؛ لِأنّها تُعدُّ جمعًا وتَحليلًا لِأغلبِ الجهودِ الّتي سَبقت هذه الدّراسةِ، ويُمكنُ إيجازُ مُجملِ مَا تعرّضت لهُ مِن مشكلاتٍ فيهَا الآتِي:

- نمطُ البحثِ، فإنَّ التّعاملَ معَ أدبِ الطفلِ يَحتاجُ إلَى وعيٍ كبيرٍ بِقيمةِ المادّةِ المُتناولَةِ، ونوعِ الفِئةِ الموجّهةِ إلَيهَا هذه المَادّةُ. وذلكَ مِن الصُّعوبةِ بِمَكانٍ لَا يخفَى.
- الجانبُ التّنظيريُّ لِدراسةِ أدبِ الطّفلِ، مِن أكثرِ الجوانبِ الّتي تناولَتْها الدّراساتُ النّقديّةُ في الوقتِ الرّاهنِ، وعلَى الرّغمِ مِن ذلك يَصعبُ تحديدُ التّوجُّهاتِ الّتي تقومُ على تحديدِ المَفاهيمِ القيميّةِ المُسترفدةِ مِن قصّةِ الطفلِ.
- عدمُ استيفاءِ الدّراساتِ السّابقةِ لِملامحِ النموّ المُتكاملةِ بينَ القيمِ ومَدِّ الطفلِ بحاجاتِه الشعوريّةِ والوجدانيّةِ، والسلوكيّاتِ الّتي ينبغي الالتزامُ بِها، في قصّةِ الطفلِ.

أهدافُ البَحثِ:

وانطلاقًا مِمّا تُشكِّلُه نوعيّةُ الدّراسةِ الّتي يَخوضُ فِيهَا أيُ باحثٍ مِن أهميّةٍ كُبرَى، تَأتَّى لِي أن أضعَ بينَ يَدَي القارئِ الكريمِ مَا يُغنيهِ عَن النّظرِ في غيرِ هذه الدّراسةِ، فيمَا يتعلّقُ بتناولِ قِصّةِ الطّفلِ في الأدبِ الحديثِ، للقيمِ الخُلقيّةِ، والسلوكِ الدينيّ، وبِناءِ شَخصيّةِ الطِفلِ في ظلّ هيمناتِ التّحديّاتِ الجديدةِ.

فرضيَّاتُ البحثِ:

وينطلقُ هذا البحثُ مِن عددٍ مِن الفرضيّاتِ، تتمثّلُ في التّالِي:

- مُنطلقاتُ قصّةِ الطّفلِ، ومدَى تكَيُّفِها معَ الواقعِ وأحداثِه المُتجدّدةِ في مُختلفِ الأقطارِ، وشتّى الأزمنةِ.
- هيمنَةُ الوقائعِ والأحداثِ المُتسارعةِ علَى نمطِ كِتابةِ قصَّةِ الطّفلِ، وانعكاساتُ تلكَ الهَيمنَةِ علَى فاعليَّتِها وتأثيرِها في الطّفلِ.
- تأثُّرُ نتاجِ الكتابةِ في قصصِ الأطفالِ بالعواملِ الخارجيّةِ، ووسائطِ التكنولوجيا الحديثةِ، والتقنياتِ البرمجيةِ.

منهجُ البحثِ:

وقد نَحَتْ هذه الدّراسةُ في تناولِ موضوعِها وفِكرتِها نحوًا مِن البَحثِ يتَّسمُ بالتّكامليّةِ بينَ عددٍ مِن المناهجِ، وفقًا لطبيعةِ البحثِ فيهَا، فقد توخّيتُ المنهجَ الاستقرائيَّ في تقصّي بعضِ النّماذجِ والأسماءِ الّتي كانَ لهَا

باعٌ في قصّةِ الطّفل، وأعملتُ المنهجَ الوصفيَّ في وسْمِ كلِّ حدثٍ تنظيريٍّ بِسماتِه التّي يستحقُّها تبعًا لحاجةِ ومُقتضَى البحثِ، كَما استقيتُ مِن المنهجِ التّحلِيليّ يُقيمُ صلبَ الدراسةِ فيمَا احتاجَ مِنها إلَى تحليلِ بعضِ النصوصِ الّتي تضمّنتْها الدراسةُ بشكلٍ جزئيٍّ.

الدِّراساتُ السابقةُ:

وهنالَك بعضُ الدّراساتِ الّتي تناولَت موضوعَ القِصّةِ في أدبِ الطِفلِ علَى نحوٍ مُختلفٍ بصورةٍ أو بِأُخرَى عَن طريقةِ تناولِي لَهَا، ومِن تلكَ الدّراساتِ، الآتي:

- دراسات حول أدب الطفل، د. جميل الحمداوي، دار المجتبى للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011
- عوامل التشويق في القصة القصيرة لطفل المدرسة الابتدائية، د. إبراهيم محمد عطا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1994
- أدب الطفل والناشئة (قراءة في نماذج من القصة والرواية)، د. إبراهيم محمد الكوفحي، عمان، ط1، 2020
- أدب الطفل العربي (دراسات وبحوث)، د. حسن شحاته، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 1991
- أدب الطفل بين وسائل الإعلام وسلطة المنظمات الدولية لحفظ حقوق الطفل (مقاربة سوسيو لسانية)، د. عواطف سليماني، نشرة المؤتمر الدولي الأول للجمعية العراقية العلمية للمخطوطات، عدد خاص.
- توظيف الحكاية الشعبية في أدب الأطفال (أزهار العرب أنموذجًا)، د. بشار إبراهيم نايف، مجلة دراسات تربوية، عدد: 23، 2013
- أدب الطفل وفلسفةُ الحضارةِ (من مرحلةِ الثباتِ، إلى التغيُّر)، د. عبد العزيز وافي، دار النبراس، الأردن، ط1، 2009
- مدخل إلى أدب الطفل (مدخل نفسي واجتماعي)، د. محمد السيد حلاوة، المكتبة المصرية للطبع والنشر، الإسكندرية، ط1، 2003
- اتجاهات أدب الأطفال في نهاية الألفي الثانية وبداية الألفية الثالثة، د. محمود الضبع، المقدمة، مجلة دواة، مجلة فصلية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات اللغوية
- وسائط أدب الأطفال، د. هدى نعمة حمد، مجلة آداب الفراهيدي، جامعة بابل، العراق، عد: 11، 2012
- التعليم الرقمي المدرسي لمادة أدب الأطفال بين الحاجة والضرورة، د. سوزان مشير أحمد، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، العراق، عد: حزيران، 2023

- أدب الطفل في المرحلة الابتدائية، جاسم محمد عبد الحميد، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2006
- التربية وحكايات الأطفال، رافدة الحريري – بلقيس الحريري، دار الفكر، عمان، ط1، 2009
- القصص الشعبي للأطفال (النزعةُ الأولى، ومراحل النماء)، سامي عبد الهادي الجاسم، دار العبيكان، المملكة العربية السعودية، ط1، 2013
- البنية القصصية في أدب الأطفال (سلسلة: الأقحوان، لجميلة زنير)، سعيدة لهلالي، أطروحة ماجستير، مقدمة لكلية الآداب واللغات، جامعة: العربي بن مهيدي، الجزائر، 2014

مقدّمة

إنّ تشكّلاتِ أيّ فنٍّ من الفنونِ الأدبيةِ، لا تقتصرُ في ذاتِها علىٰ نمطِ كِتابتِها وطريقةِ سردِها التي تُعتبرُ من خصائصِه التي تُميّزُه عمّا سواهُ من أنواعِ السردِ الأخرىٰ، بل إنّ المُعوّلَ عليهِ في طَرْقِ أبوابِ الموضوعِ، تلك الأساليبُ التي تُحدّدُ مضمونَ الخطابِ، والفئةَ المستهدفةَ به، ومدى ما يُمكنُ تحقيقُه منهُ؛ لتتطابقَ أسسُ صياغتِه مع أهدافِه وموجباتِ عملِه، ومن ثمّ فإنّ لكلّ نوعٍ من الأنواعِ الأدبيةِ سماتٍ ومُقوّماتٍ وصورةً خاصّةً تُعبّرُ عن مضمونِه ومدىٰ ما يعكسُه من قيمٍ، ويُحقّقه من أهدافٍ.

وانطلاقًا من تلك التقدمةِ يُمكنُ الوقوفُ علىٰ مجملِ التّحدياتِ التي يُعالجُها أدبُ الطفلِ القصصيّ، في مُحاولةٍ لإثباتِ الهويةِ وتحديدِ ملامحِ الذّاتِ، والنّهوضِ بالشخصيةِ المُستقلةِ التي تُعَدُّ عيارًا لتمثيلِ هؤلاءِ الأطفالِ للمُستقبلِ الذي نُعِدُّهم له ونُهيّئُهم للقيامِ بعبءِ صناعةِ الحضارةِ وصياغةِ ملامحِها الأدبيةِ في ميادينِ المعرفةِ المختلفةِ فيهِ، فتوجيهُ الجهودِ نحوَ إعدادِ الأطفالِ إعدادًا يُساعدُ في صياغةِ شخصِهم ومستوياتِ تفكيرِهم، ليسَ مقصورًا علىٰ تعليمِهم القيمَ والعاداتِ في صُورتِها التقريريةِ الّتي تُقدَّمُ لهم معَ الموادِّ التَعليميّةِ في مَدارسِهم، والّتي تستهدفُ إعطاءَهم فكرةً كُليَّةً أو جزئيّةً عنها لمُجردِ التذكُّرِ والاستحضارِ الآني لها عندَ الحاجةِ إليها، بل يستهدفُ الجوانبَ الشعوريةَ والنّفسيةَ والوجدانيةِ، فهي خطابٌ ذوقيٌّ يُنمّي الذكاءاتِ الوجدانيةَ ويُهيمنُ علىٰ مكامنِ العاطفةِ لدىٰ الأطفالِ.

وذلك أبرزُ دوافعِ اختيارِ مادّةِ البحثِ، فالقيمةُ الأدبيةُ الطّامحةُ إلىٰ معرفةِ أسبابِ التّأليفِ في أدبِ الطّفلِ وكيفيةِ التّعاطي معَه، ومدىٰ ما خلّفَه الأدباءُ فيهِ من حصيلةٍ أسهمت في إثراءِ مكتبةِ الطّفلِ العربيةِ، إحدىٰ ملامحِ التقدّمِ الحضاريّ والسّبقِ العربيّ في ميدانِ العنايةِ بالطفلِ من خلالِ تقديمِ التّوعيةِ الثقافيةِ والمجتمعيةِ والبيئيةِ والسلوكيةِ لهُ في قالبٍ يسنطقُ عقلَه ويُؤثّرُ في وجدانِه، ويُغيّرُ في سلوكِه الفرديّ والجماعيّ.

على أن يأتيَ البَحثُ تحتَ عنوانِ (قصصُ الأطفالِ – هيمنَةُ الواقعِ، ورُؤَى المُستقبلِ)، ومُتضمِّنًا لمقدّمةٍ شارحةٍ لدوافعِ اختيارِ موضوعِه، وتفاصيلِ مباحثِه، ومبحثينِ:

الأوَّلُ: أصالةُ النّشأةِ، وسُلطةُ التّحوُّلِ

وفيهِ مطلبانِ:

1 - مَراحلُ التّنامي في قصصِ الأطفالِ (الشّكلُ، والمَضمونُ)
2 - عَناصرُ الاستهدافِ (الأعمارُ، والأفكارُ)

الثَّاني: أدبُ الطِّفلِ – وَسيلةُ التّناولُ، وتَعزيزُ الغايةِ

وتحتَهُ مَطلبانِ:

1 - أشكالُ أدبِ الطّفلِ، وعلاقتُها بالهويّةِ
2 - مَصادرُ أدبِ الطّفولةِ، المُؤثِّراتُ والتّوعيةُ

وخاتمةٍ تُبرزُ أخصَّ ما توصّلتُ إليهِ من نتائجَ في تضاعيفِ الدّراسةِ.

المَبحثُ الأوَّلُ

أصالةُ النّشأةِ، وسُلطةُ التّحوُّلِ

لَا تَعنِي مُحاولةُ التَّماهِي معَ الأُسسِ المنطقيّةِ الّتي ظهرَ عليهَا أدبُ الطّفلِ في صورتِه القصصيةِ عربيًّا وغربيًّا، أن نسيرَ بِمقتضاهَا، وأن نلتزمَ غايتِها في كلِّ تفاصيلِها، حتَّى لو دخلَ هذا النّوعُ مِن الأدبِ جُحرَ ضَبٍّ دَخلنَاها وراءَه، بَل لابُدَّ مِن المُغايرةِ والمُخالفةِ البَنَّاءةِ الّتي تُفرزُ لَنَا إنتاجًا عربيًّا مُستقِلًّا يَتميَّزُ بِهِ أدبُ الطّفلِ القصصيِّ في جوانبِه البَارزةِ منهُ، والّتي تَعودُ بِالنّفعِ عَلَى أطفالِنا فِي ميادينِ الحياةِ كافَّةً، وذلكَ أحدُ أبرزِ مَلامحِ الاختلافِ بينَ أدبِ الطّفلِ في صُورتِه القصصيَّةِ وغيرِه مِن أنواعِ السّردِ الّتي اختصَّ الأُدباءُ بِهَا الأطفالِ، وبينَ أدبِ الطّفلِ في صُورتِه الشِّعريّةِ.

وقد غصَّت المكتبةُ العربيّةُ حديثًا بِالمصادرِ الّتي تربطُ أدبَ الطفلِ - بمُختلفِ أشكالِه – بواقعِ حياتِهم ومستوَى تفكيرِهم ومنعكساتِ ثقافتِهم البيئيَّةِ والاجتماعيةِ وغيرِها، ولسنا هنا بصددِ الحديثِ عن نشأةِ وتطوُّرِ أدبِ الطفلِ هالميًّا أو عربيًّا، غيرَ أنَّ الإلماحَ إلى المرحلةِ التأسيسيَّةِ يضعُنا على جادَّةِ الطريقِ في نظرِ قضيَّةِ هذه الدراسةِ، فالحديثُ عن السِّماتِ العامَّةِ لكتابةِ القصَّةِ، وتأثيرِها في أدبِ الطِّفلِ، يُحدِّدُ قيمةَ القصَّةِ – بوصفِها نتاجًا أدبيًّا اجتماعيًّا مستهدفًا لفئةٍ معيَّنةٍ – في إرساءِ قواعدِ العملِ واعتمادِها كنوعٍ من الأدبِ النَّافعِ لمرحلةٍ عمريَّةٍ أو مراحلَ شَتَّى لدَى الأطفالِ.

وهنا سأتوقَّفُ معَ مراحلِ التطوُّرِ والتَّنامي التي لحِقت بأدبِ الطِّفلِ العربيّ، في لمحةٍ موجزةٍ إلى مسالِكِه التي سلكَها وصولًا إلى تلبيةِ حاجاتِ هذا العالمِ المُتغيّرِ من حولِ أطفالِنا، عبرَ مطلَبينِ:

المَطلَبُ الأَوَّلُ

مَراحلُ التّنامي في قصصِ الأطفالِ (الشّكلُ، والمَضمونُ)

هنالك أبجديةٌ معروفةٌ لأيّ فنٍ من الفنونِ يتعرّفُ من خلالِها على ملامحِه الأولَى، ثمَّ التّي صاحبتهُ في حركةِ تغيُّرِه واكتمالِ نُضجِه، وقد أخذ قصصُ الأطفالِ أشكالًا مُتباينةً في الصُورةِ الأدبيّةِ حتّى يصلَ إلينَا بهذا الكمالِ، فقد كان يدورُ سابقًا حولَ السِّيرِ الشعبيةِ والمشاهدِ الخرافيةِ التي تعتمدُ على الإراقِ في الخيالِ، وكانت تهدفُ في بدايةِ ظهورِها إلى التسليةِ المجردةِ، لا لشيءٍ أكثرَ من ذلك.

ولم هنالكَ من الوعي الكافي بضرورةِ الانتحاءِ بهذا اللونِ من أدبِ الطِفلِ منحًى وظيفيًّا يُؤطِّرُ بينَ عقلِ الطفلِ وفنونِ التربيةِ بِصِلةٍ، ما يُحقِّق لدَى العاملين في حقلِ الدراساتِ الأدبيةِ – في تلك الأوقاتِ – رؤيةً واضحةً تجاهَ القصِّ للطفلِ، وقد أشارَ الدكتور جميل الحمداوي إلى الاكتشافاتِ المُبكِّرةِ للأداءِ الوظيفيّ لأدبِ الطفلِ عربيًّا، كما لوَّح إلى تأخُّرِ دَورِ القصةِ قليلًا في التعرُّفِ عليهِ([1])، وأرجعَ الفضلَ في التأثُّر بهذا اللونِ الأدبيّ – كغيره من الباحثينَ – إلى "الترجمةِ والنقلِ من اللغاتِ الأخرَى"([2])، ومن ثَمَّ يُمكنُ القولُ بأنَّ قصص الطفلِ في أوَّلِ نشأتِه العربيَّةِ، كانَ مُحاكاةً لآدابٍ أُخرَى عربيَّةٍ قديمةٍ وأجنبيةٍ مُترجمةٍ.

وليسَ في التَّنظيرِ لنشأةِ أدبِ القِصَةِ لمراحلِ ما قبلَ الشَّبابِ ما يُنسينا نقاشَ الأهدافِ التي يؤمُّها هذا النَّوعُ من الأدبِ، فإنَّ مهمَّتَه الأولَى تنطقُ بأهدافِه الأصيلةِ والفرعيةِ التي تُسهِمُ في إملاءِ أسلوبِ صياغتِه على كاتبِه، فاختلافُ طريقةِ تناولِه وملامحِ بنائِه الفنيَّةِ ليسَ عبثًا ناتجًا عن تصرُّفِ كلِّ مُبدعٍ مِن مبدعيهِ على وفقِ إرادتِه الخاصَّةِ، وتصوُّراتِه الذاتيةِ، بل هو ممَّا يخضعُ لمطالبِ كلِّ فئةٍ من فئاتِ هؤلاءِ الأطفالِ المُستهدفينَ بهِ.

فإنَّ الاختلافَ الواقعَ في مظاهرِ صياغةِ القصَّةِ اعتبارٌ مُهمٌّ من الاعتباراتِ التي تجبُ مراعاتُها عندَ النَّظرِ إلى المرحلةِ العمريَّةِ المُخاطبةِ بها، فأطفالُ ما قبلَ المدرسةِ يحتاجونَ إلى نوعٍ من القصِّ يُعوَّلُ فيهِ على عناصرِ الإبداعِ التصويريّ البصريّ أكثرَ ممَّا يُعتمَدُ فيهِ على المفرداتِ والتصويرِ الخياليّ؛ لـ"فقد هؤلاءِ الأطفالِ – في تلك المرحلةِ – إلى التعطُّشِ للقراءةِ وانعدامِ قُدرتِهم على الوعي الكاملِ لمُحتوَى القصَّةِ بالاعتمادِ على الخيالِ المنبثقِ عن الظَّواهرِ اللغويةِ والتَّركيبيةِ"([3])، فذلكَ وإن تناسبَ معَ بعضٍ من أفرادِ هذه الفِئةِ، يظلُّ عجزُ أكثرِها عن استيعابِه قائمًا.

أمَّا مرحلةُ ما قبلَ الشبابِ، فإنَّ لها معيارًا أساسيًّا في تناولِ الفِكرةِ موضوعِ القصَّةِ، تتضمَّن المغزَى المرادِ لفتِ الطِّفلِ إليهِ، فمِن المعلومِ أنَّ اللغةَ المنطوقةَ وحدَها لم تَعد مصدرَ الفهمِ والوعي، والخِطابُ

الأدبيُّ في قصصِ الأطفالِ قد اعتمدَ على اللغةِ غيرِ المنطوقةِ في توصيلِ مرادفاتِ المعاني التي تتضمَّنُها القصّةُ إلى هؤلاءِ الأطفالِ، فاللغةُ في العملِ الأدبيّ – خاصَّةً – لم تَعُد لمجرد الاتصالِ، لكنَّها للاتِّصالِ، والتَّصويرِ، وإثارةِ الشُّعورِ عن طريقِ التأثيرِ في العاطفةِ"([4])، وعلى ذلك فالقولُ بأنَّ اللغةَ التصويريَّةَ التي تصنعُ حدثًا ما يتمُّ تعزيزُه باللغةِ المنطوقةِ في الجانبِ الآخرِ من القصَّةِ، من أبرزِ نتاجاتِ المعرفةِ المتقدِّمةِ بوسائلِ الإثارةِ للمُعزِّزاتِ الذهنيةِ والوجدانيةِ تجاهِ نوعِ الاستجابةِ المرادةِ من الطفلِ في مرحلةٍ ما من مراحلِ عمرِه.

غيرَ أنَّ تقنينَ المحتوَى التصويريَّ الذي يشغفُ الطفلَ بالعملِ القصصيّ في مرحلةِ ما قبلَ الشبابِ، والتي دَرَجَ النقادُ والأدباءُ على تسميتِها بمرحلةِ (النَّشء)، فهو أحدُ ملامحِ القصَّةِ الحديثةِ التي تستقِي شكلَها ومضمونَها من المرحلةِ العمريةِ والبيئةِ الثقافيةِ التي تؤثِّرُ في تشكيلِ وجدانِ وفكرِ الطفلِ في تلك المرحلةِ، فهو يختلفُ عن طفلِ ما قبلَ الدراسةِ في تقدُّمِه العمريّ، وفي اشتعالِ جذوةِ الفكرِ وتتبُّعِ مسارِ الأحداثِ، فكانَ الأجدرُ في تلك المرحلةِ خطابَ هذا الطفلِ بما يُتيحُ له التعرُّفُ على لُغتِه التي تُمثِّلُ هويتَه وتُشكِّلُ وعيَه بمُجتمعِه، وفقَ عددٍ من الأساليبِ التي يتمكَّنُ من إدراكِ كُنهِ المُرادِ من مُتضمَّناتِ القصَةِ بها، كإثارةِ التساؤلاتِ، والتشاكلاتِ اللفظيةِ بالتَّكرارِ، والمحاوراتِ...إلخ([5]).

المَطلَبُ الثَّانِي

عَناصرُ الاستهدافِ (الأعمارُ، والأفكارُ)

والانطلاقُ في هذا المبحثِ من ضرورةِ معرفةِ أنَّ للطفلِ دورًا فاعلًا في مُجتمعِه في الحاضرِ والمُستقبلِ، أمَّا بالنسبةِ لحاضرِه، فيتمثَّلُ في كونِه ثروةً بشريةً مُدَّخرةً لغدٍ، يجبُ العنايةُ بِها وتشديدُ الاهتمامُ بأولوياتِها التي تعملُ على تنشئتِها تنشئةً قويمةً تُسايرُ الواقعَ الذي يُظهرُ نبوغَهم ويُحدِّدُ مساراتِهم في الحياةِ القادمةِ([6])، فالمعرفةُ الإنسانيةُ حصيلةُ تراكمِ التجاربِ التي تتآلفُ عندَ الطفلِ على مدارِ أعوامِ حياتِه، لاسيما التي يتعرَّفُ عليها في فترةِ الطفولةِ، ولو كانَ التعاملُ معَ قصصِ الطفلِ من قبيلِ التَّسليةِ، ومُجرَّدًا عن تحصيلِ المعارفِ الخلَّاقةِ، لانتفَى الغرضُ الأصيلُ منهُ، وهو بِناءُ شخصيةٍ قياديةٍ لها دورُها الفاعلُ في الحياةِ الحاضرةِ للطفلِ([7]).

أمَّا بالنِّسبةِ لهذا الدَّورِ الذي يلعبُه قصصُ الطفلِ – بوصفِه أحدَ أجناسِ أدبِ الطفولةِ الأكثرِ شيوعًا – فإنَّ المُلاحظَ فيهِ ضرورةَ التعاملِ معَ الطفلِ بما سيؤولُ إليهِ في المستقبلِ، معَ مُراعاةِ التغيُّراتِ التي قد تطرأُ عليهِ بالتَّوازي معَ تقدُّمِه في العمرِ، ولا يعني ذلك الحكمُ على قصصِ الأطفالِ بأنَّها مستودعًا للمعارفِ، ولكنَّها - معَ ذلك – أداةٌ للتَّعليمِ، وعليه فإنَّ قصصَ الطفلِ يجبُ أن يكونَ ترجمةً صحيحةً وصادقةً لعواملِ

الانقرائيةِ"([8])، وهذا الاتِّجاهُ في في القصِّ للطِّفلِ، يُتعبرُ معيارًا لِما يجبُ أن يكونَ عليهِ أسلوبُ القصِّ للطفلِ في مراحلِه المختلفةِ.

ومن الملاحظِ التي يجبُ إبداءُ الرَّأي حولَها في هذا الصددِ، لفتُ النظرِ إلى التَّعاملَ معَ الأطفالِ من خلالِ ما يُقدَّمُ لهم من أدبِ القصِّ، من الأشياءِ ذاتِ التأثيرِ الأيدلوجيِّ الذي قد يُغيِّرُ في فِكرِهم، وفي مساراتِهم، فلم يَعُد أدبُ القصَّةِ يعتمدُ على مُجرَّدِ الاسترسالِ في حوارٍ أو وصفِ حدثٍ من طريقِ اللغةِ المنطوقةِ – كما ذكرتُ آنفًا – بل إنَّ هناك عددًا من وسائلِ التعبيرِ التي "تُقدَّمُ للطفلِ في شكلٍ يُمكنُ أن يفهمَه بسهولةٍ، من خلالِ: التعبيرِ الصوتيِّ – البصريِّ – الموسيقيِّ "([9])، فهذه الأشياءُ غيرُ محصورةٍ في الترفيهِ وحسبُ، بل إنَّها تتداخلُ الآنَ معَ القصةِ المقروءةِ والمسموعةِ والمرئيَّةِ، فتنعكسُ على الطفلِ في مختلفِ مراحلِه العمريةِ بما يُحدِّدُ لديهِ مفاهيمَ ويُعَيِّنُ اتِّجاهاتٍ لم يكن يعرفُها قبلَ هذا التداخلِ الإعلاميِّ الذي أضفَى على قصةِ الطفلِ جانبًا من الحركيَّة.

وما يُمكنُ استنباطُه من تداخلِ بعضِ العواملِ ذاتِ التأثيراتِ الصوتيةِ، والمحاكيةِ للواقعِ، كالصورةِ الثابتةِ والأُخرَى المُتحركةِ، معَ ألوانِ القصِّ المختلفةِ التي تنصبُّ على صقلِ معارفِ الأطفالِ في أعمارٍ متباينةٍ، أنَّ القصَّةَ قد انتقلت من طورٍ ثابتٍ لا يتغيَّرُ أسلوبُه، ولا يتحوَّلُ نمطُه مهما تغيَّرت المراحلُ العمريةُ المستهدفةُ، إلى طورٍ جديدٍ يُراعي ميولَ واهتماماتِ الأطفالِ، ويُحافظُ على نسبةِ استيعابِهم لمكوِّناتِ وركائزِ بناءِ العملِ القصصيِّ، وقد لُوحظَ على هذا الانعتاقِ الملموسِ لقصِّةِ الطفلِ من رتابةِ النمطِ، أنَّها لم تَعُد تعتمدُ على "مفاصلِ السردِ المبنيةِ على نمطِ البناءِ المُتتابعِ، الذي تسيرُ فيه الأحداثُ مُتعاقبةً"([10])، فذلك لا ينسجمُ معَ طبيعةِ التطورِ المُتنامي لهذا النوعِ من الأدبِ ولا يتناسبُ معَ طبيعةِ الفروقِ الفرديةِ بينَ بعضِ الأطفالِ وبعضِهم.

ومن ثمَّ فإنَّ أدبَ الطفلِ قد بدَا على صورةٍ سرعانَ ما تغيَّرت وخطَّت لنفسِها سبيلًا مختلفًا؛ بسببِ تغيُّرِ عواملِ النهضةِ ومجالاتِ الكتابةِ، وتباينِ التوجُّهاتِ ومساراتِ التفكيرِ جملةً وتفصيلًا، بانتقالِها من طورِ المعلوميَّةِ إلى مرحلةِ عدمِ الإدراكِ الثابتِ للأشياءِ، مما يُفقِد المتأمِّلَ فيها خصوصيةَ توقُّعِ ما ستؤولُ إليهِ([11])، ووفقًا لإدراكِ الأُدباءِ والنقادِ أنَّ مرحلةَ القصِّ للأطفالِ تبعًا للاتِّجاهاتِ القديمةِ التي كانت تتخذُ من الزمنِ والمكانِ والشخصياتِ والأحداثِ وحداتٍ أساسيةً وركائزَ أصيلةً لقياسِ مدَى جودةِ العملِ منرداءتِه، بدأ ينحو القصُّ للطفلِ منحًى جديدًا يعتبرُ هذه الدعائمَ أصلًا ثابتًا في القصةِ، ومُمثِّلًا أساسيًّا لها.

غيرَ أنَّ بعضَ الإضافاتِ الفنيَّةِ التي قد تُناسبُ فئةً دونَ أُخرَى، وتستهدفُ مرحلةً سِنيَّةً دونَ سائرِ المراحلِ، هي ما تُحدِّدُ المستوى العمريَّ المستهدفَ، فالأطفالُ ليسوا مستوًى واحدًا في التلقِّي، وإنما مختلفونَ باختلافِ شرائحِهم العمرية، وهناك تصنيفاتٌ تُقسِّم الطفولةَ إلى مراحلَ سِنيَّةٍ وتُحدِّدُ لكلِّ مرحلةٍ خصائصَها النفسيةَ والمعارفَ التي تتناسبُ معها([12])، ووفقًا لتلك التصنيفاتِ بدت ملامحُ التعاملِ معَ أدبِ

الطفلِ تكتسي بالحذر في التعاملِ معَها؛ لتحرُّكِها في اتِجاهاتٍ تعتمدُ على دقَّةِ الملاحظةِ وسلامةِ الاختيارِ، بحسبِ الشريحةِ المخاطبةِ بالقصةِ([13]).

ولذلك يجبُ على مَن يتناولُ قصَّةَ الطفلِ إبداعًا ودراسةً أن يضعَ تحتَ الملاحظةِ، الفروقَ الفرديةَ بينَ كلِّ شريحةٍ من شرائحِ الأطفالِ المُخاطبينَ بها، وما يتمتَّعُ بهِ كلُّ شريحةٍ منهم من القُدراتِ العقليةِ، بالنَّظرِ إلى تباينِ الأعمارِ، وتفاوتِ المَلكاتِ الإدراكيَّةِ للمسائلِ أو المفاهيمِ التي قد تَعرضُ لها القصَّةُ بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ، فإنَّ إعدادَ الطفلِ لحياةٍ مستقبليةٍ من خلالِ تلك الأعمالِ يقومُ على ضرورةِ مشاركةِ الطفلِ الفاعلةِ في استنطاقِ النصِّ بما يرغبُ مُبدعُه في توصيلِه إليهِ، وتحديدِ مغازي خِطابِه بنفسِه دونَ استعانةٍ بوسائطَ تُساعدُه على استيعابِ فكرِه أو مُلاحظةِ تصوُّراتِه([14]).

هذا، وإنَّ الحديثَ عنَ نظريةٍ يُمارسُ مِن خلالِهَا القصُّ للأطفالِ فِي مناخٍ يُناسبُ كلَّ فئةٍ مِن الفئاتِ العُمريّةِ، لَيسَ مِن التّرفِ ولا مِن قبيلِ الزّينةِ اللفظيةِ، فالوقتُ مُواتٍ لِنقاشِ مثلِ هذه القضيّةِ، منِ أجلِ التّوفيقِ بينَ وسائطِ المعرفةِ الحديثةِ في صورِها المُختلفةِ، إعلاميًّا، ومعرفيًّا، وتِقنيًّا، وركائزِ بِناءِ القصّةِ القصيرةِ أو الرّوايةِ الّتي تستهدفُ شرائحَ عُمريّةٍ شَتَّى للأطفالِ؛ بِغَرضِ تَنميةِ معارفِهم، وتكثيرِ مُكتسباتِهم، وتزويدِهم بدفقاتٍ شعوريّةٍ تُنتِجُها العمليّاتُ الذّوقيّةُ المُحصَّلَةِ لهم مِن قراءةٍ أو سَماعٍ أو مُشاهدةِ قِصّةٍ مَا مِن قصصِ الطُّفولةِ.

فإنَّ لعصرِ المعلوماتيَّةِ أحكامًا ينبغي لقصَّةِ الطفلِ الخضوعُ لها، كما أنَّها أخضعت كلَّ شيءٍ لها في الحياةِ وأثَّرت عبرَ رُقعةِ العالمِ الواسعةِ في تغييرِ مساراتِ الثقافةِ العالميةِ، فجعلت من العالمِ وحدةً واحدةً مُتناسجةً، ومن تلك الأحكامِ ضرورةُ خضوعِ قصّةِ الطِّفلِ لوسائطِ التقنيةِ والمعلوماتيَّةِ الحَديثةِ، والأدواتِ المُبرمجةِ([15])، وتتجسَّدُ أمثليَّةُ إخضاعِ قصصِ الطَّفلِ لوسائطِ المعلومَاتيَّةِ لحديثةِ؛ لمواكبةِ ركبِ العصرِ، ومواجهةِ تحدّياتِ الوقتِ، فيما يصلحُ أن يكونَ أحدُ أعمدتِه في القصّ الوسائطَ التقانيةِ والمَعلوماتيةِ، كالقصصِ العلميةِ، وقصصِ الخيالِ العلميّ، والقصصِ الاستكشافيةِ([16])، فهي الأفضلُ؛ لأنَّها تُحيلُ القصَّةَ من مُجرَّدِ عُنصرٍ لغويٍّ مُثيرٍ عاطفيًّا إلى عُنصرٍ بصريٍّ يُنمّي الإدراكَ وخصائصِ الاستشعارِ.

وذلك أدعَى لمُراعاةِ الفروقِ بينَ شرائحِ الأطفالِ لمخاطبينَ بنوعِ تلك القصَّةِ في العُمرِ والعقلِ، وأكثرَ انسجامًا معَ رُوحِ العصرِ شديدةِ التَّسارعِ، وأقربُ إلى هَيمنةِ الوعي الإدراكيِّ لدَى الأطفالِ على مُلابساتِ القِصَّةِ ومُكاشفةِ أحداثِها وربطِها بِما قد يصنعُ منهُ الطِّفلُ إسقاطًا على شيءٍ آخرَ، ولعلَّ ما أشرتُ إليهِ من ضرورةِ التَّأطيرِ لقصصِ الطِّفلِ ووسائطِ التقنيةِ الحديثةِ بصلَةٍ، يكونُ مِن دوافعِ الخروجِ على التقليديةِ، والولوجِ إلى عوالمِ النَّشاطِ الألكترونيِّ المُحقِّقةِ لغاياتٍ لم يكن التَّعليمُ النمطيِّ ليصِلَ إليها([17]).

المَبحَثُ الثَّاني

أدبُ الطِّفلِ – وَسيلةُ التّناولُ، وتَعزيزُ الغايةِ

لم تزلِ التحديَّات التي يُواجِهُها أطفالُنا تتزايدُ يومًا تلوَ الآخرَ، علَى كافَّةَ الأصعدةِ، وبأشكالٍ مُختلفةٍ، تحتاجُ إلَى مُمارساتٍ فِكريّةٍ وعمليّاتٍ عقليّةٍ دقيقةٍ تصلحُ للتعاملِ معَها، ولَم تعُدِ الوسائطِ التّربويّةِ المَألوفةِ – معَ وتيرةِ تلكَ التّحديّاتِ المُتصاعدةِ – تُؤتِي أُكلَهَا، كَما مصَادرُ التّعلُّمِ تُعطِي نتاجًا نموذجيًّا في مُعالجةِ ميولِ الأطفالِ، وتحديدِ هويّاتِهم، وتعزيزِ مناخٍ داعمٍ لأهدافِهم الحيويّةِ المُتباينةِ.

ولذا نجدُ جهودَ كثيرٍ مِن الأُدباءِ مُنذ طليعةِ فجرِ النّهضةِ الحضاريّةِ الجديدةِ، في ميادينِ العلمِ والأدبِ كافَّةً، تسعَى لتعزيزِ القيمِ الخُلُقيةِ وتُرسِّخُ – قدرَ المُستطاعِ – لتحقيقِ الأهدافِ التّربويةِ وتعزيزِ نتائجِ التّعلُّمِ، مِن خلالِ القّصةِ الأدبيّةِ المُوجّهةِ للطفلِ في مُختلفِ شرائحِه العُمريةِ، وذلكَ بعدَ أن أثبَتت القِصّةُ دورَها الفاعلَ في تعليمِ الأطفالِ والإسهامِ في تربيتِهم على القِيَمِ والسلوكيّاتِ التّي تنسجمُ مَعَ رُوحِ العصرنَةِ، وأهدافِ التنميةِ الذّاتيّةِ المُستدامةِ، وقد أظهرَ القصُّ للأطفالِ نتائجَ لا تحتملُ نقاشًا في الأدبِ الإسلاميّ القديمِ، ومن أبرزِ الأعمالِ التي جلَّت عن نفسِها "حي بن يقظان...، وألف ليلية وليلة...، حيثُ كانت هذه القصص للكبارِ، رغم أنها كانت تُروَى للصغارِ أيضًا"([18])، فهي وإن لّم تكن بدايةً قويةً لقصَّةِ الطِّفلِ، إلَّا أنَّه شكَّلت مِعيارًا لقياسِ قوَّةِ تأثيرِ القِصَّةِ على الطِّفلِ.

ومن ثمَّ تراءَى لكثيرٍ مِمّن خاضُوا في مجالِ التّأليفِ في أدبِ الطفلِ، لاسيّمَا في أدبِ القصّةِ الموجّهِ، أن يعملُوا مِن خلالِ القصّ للأطفَالِ علَى بِناءِ شخصيَّةِ الطِّفلِ وتعزيزِ القِيَمِ السّلوكيّةِ، والتأصيلِ للمبادئِ الدِّينيةِ والخُلقيَّةِ لَدَيهِ، فالقصّةُ – عندَ الأطفالِ – من أكثرِ فنونِ القولِ قُربًا من نفوسِهم، فهي أكثرُ الفنونِ الأدبيةِ ملاءنةً لميولِ الأطفالِ، وهم مولعونَ بها، يتوحَّدون معَ أبطالِها، ويُعايشونَ أحداثَها، ويتأثَّرونَ بمحتوياتِها([19])، فالتّوجُّه العامُّ - إذن – في اختيارِ إلقاءِ الضّوءِ علَى القِصّةِ في أدبِ الطّفلِ، ليسَ لمُجرّدِ أنّها فرعٌ مِن أدبِ الطّفلِ، بل لشدّةِ ميلِ الأطفالِ إليهَا، وحُبِّهم فيهَا، وتأثُّرِهم بِها.

المَطلَبُ الأوَّلُ

أشكالُ أدبِ الطّفلِ، وعلاقتُها بالهويّةِ

ولا يَعنِي تَخطّينا لِأنواعِ الأدبِ المُوجّهِ للطفلِ قلَّةَ عِنايتَها بِالطّفلِ في جوانبِ حياتِه المُختلفةِ، وضعفِ تركيزِها علَى مُسوياتِ الأطفالِ العقليّةِ والفِكريّةِ، أو انحدارِ نسيجِها بِما لَا يُدانِي الأدبَ القصصيَّ، ولكن للقصّةِ معَ الأطفالِ تاريخٌ طويلٌ يربطُهم بِهَا، ويُدنيهم مِن عوالِمِها، ويُوجِّدُهم مَع شخصيّاتِها، وذلك مِمّا يُسهّلُ عملَ الأديبِ المُبدعِ، الذي ينحو هذا المنحَى، مِمّا يُساعدُه عَلى تقديمِ القيمةِ الخُلُقيّةِ أو السُّلوكِ النّفسيّ الذي يُوجّهُهم إليهِ عبرَها من غيرِ أن يُقابلَ ذلك بشيءٍ من المشقَّةِ في استِقبالِهم لها.

ويتأسَّسُ على الشَّكلِ الذي يَختارُه الأديبُ لنوعِ القِصَّةِ التي يتوجَّه بها إلى فئةٍ أو شريحةٍ مُعيَّنةٍ من الشرائحِ العُمريةِ للأطفالِ، مدَى قبولِ الأطفالِ لها وانتفاعِهم بِها، وذلك حيثُ يُعتبرُ الشَّكلُ الشَّعبيُّ غالبٌ في كثيرٍ من الأقطارِ العربيَّةِ والعربيَّةِ، على حِين أنَّنا نجدُ شكلَ القِصَّةِ الحديثةِ دارجًا في بعضِ الأقاليمِ العربيَّةِ وغيرِ العربيَّةِ الأُخرَى([20])، فالشكلُ أحدُ عواملِ التَّأثيرِ المهمَّةِ في استقبالِ الطِّفلِ للقصَّةِ من عدمِه، بل وشديدُ التَّثيرِ في نسبةِ قبولِها لها وانفاعلِه بِها.

1-1 الشّكلُ الشّعبيُّ لقصّةِ الطّفلِ:

قبل الحديثِ عَن القصّةِ الشّعبيّةَ الّتي تتناولُ بعضَ القيمِ السّلوكيةِ والأخلاقيّةِ لدَى الأطفالِ عبرَ مُعطياتٍ مُحددةٍ، يجبُ الإلماحُ إلَى روافدِها، وأشكالِها، ونموّها، فإنّ للقصّةِ الشّعبيّةِ التّي تُخاطبُ الطّفلَ رافدًا قديمًا يعودُ إلَى الإغريقِ، تناولَهُ أفلاطون بطريقةٍ رمزيةٍ مِن خلالِ حديثِه عَن التّربيةِ الّتي تقومُ علَى تقديمِ بعضِ القيمِ الإلزاميّةِ مِن قِبَلِ الأُسرةِ للطفلِ، بغرضِ "حمايتِه مما يضرُّه، ويعوقُ نموَّه نموًّا صحيحًا كاملًا، وتعزيزِ بناءِ شخصيَّتِه في جوانبِ الحياةِ كافَّةً"([21])، وكانَ للأسرةِ في تلك المرحلةِ من حياةِ الطفلِ الدَّورَ البارزَ الذي لا يحولُ بينَهم وبينَها شيءٌ، فليسَ شيءٌ يقومُ مقامَ الأُسرةِ في تقديمِ هذا الدعمِ التربويّ للطفلِ من خلالِ محاكاتِها لبعضِ النَّماذجِ الأسطوريَّةِ التي تنقلُ الطفلَ من عالمِه إلى عوالمِ ما وراءَ العقلِ([22]).

وقد كانَ لهذا النَّوعِ من القَصّ في أدبِ العربيةِ تاريخٌ طويلٌ، أنتجَ بعضَ القصصِ ذات الشأنِ التي كانت تُروَى للكبارِ والصغارِ، وتستهدفُ بعضَ القيمِ السلوكيةِ والخلقيةِ، وليسَ أدلَّ على ذلك من قصصِ الحيوانِ التي جاءت في كتابِ (كليلة ودمنة) للفيلسوفِ الهندي بيدبا([23])، وقد وظّفت بعضُ المناهجِ التّعليميّةِ بعضًا مِن قصصِ كتابِ (كليلةِ ودِمنة) مُستهدِفةً بِها بِناءَ شخصيّةِ الطّفلِ، وتعزيز قُدراتِه علَى حلّ المُشكلاتِ، ودعمِ الفِكرِ النّاقدِ لَدَيه([24]).

ولا شكَّ أن الشّكلَ الشّعبيَّ للقصّةِ في الأدبَينِ العالميّ والعربيّ، كانت بِدايةً لهيئةِ القصّةِ الّتي شكّلت معالمَها الحداثيّةَ - فيمَا بعدُ - الأحداثُ والتّطوُّراتُ الّتي طرأت عليهَا، ولِنموذجيّةِ ذلكَ الشّكلِ لَم يَزل كثيرٌ مِن الأدباءِ في كثيرٍ مِن الأقاليمِ يصُوغُ علَى مِنوالِها، ويتوخَّى العملَ بِهَا لِأنّها الأقربُ إلَى إدراكِ الطّفلِ في بعضِ مراحلِ حياتِه، خاصّةً المرحلةَ الأُولَى الّتي لا يقدرُ فِيها علَى استِيعابِ التقنياتِ السّرديةِ الطّارئةِ علَى القصّةِ.

2-1 الشَّكلُ الحَداثويُّ لِقصَّةِ الطّفلِ:

وبالنَّظرِ إلى الإجراءاتِ التقنيةِ في فنيَّاتِ صياغةِ القِصَّةِ في أدبِ الطفلِ، التي تستهدفُ تلبيةَ أغراضِ مُجتمعِه، وتتَّسمُ بالحداثويةِ، نجدُ أنَّها تأثَّرت تأثُّرًا شديدًا بعواملِ النَّهضةِ التقنيةِ، فتداعت عليها ملامحُ الشَّكلِ الذي يتميَّزُ بطابعِ العصرِ، فقد "اختلفت اختلافًا جذريًا عمَّا كانَت عليهِ في الحضارةِ القديمةِ،

فتأثَّرت بكلِّ ما أحاطَ بها من عواملَ خاصةً تلك التي تتعلَّقُ بتقدُّمِ المجتمعاتِ وتطوُّرِها"([25])، وقد كانَ لكلٍّ مِن القِصَّةِ في أدبِ الطّفلِ بِصورَتيهَا الشّعبيّةِ والحَداثويّةِ في تلبيةِ بعضِ الأهدافِ المرجوَّةِ منها، إلَى جانبِ المناهجِ التّعليميةِ والتّربويّةِ الّتي تستهدفُ الجانبَ الُخلقيَّ والميولَ الخاصَّةَ بِالطّفلِ.

وقد سبقتِ الإشارةُ إلى أنَّ النواةَ الأُولَى لقصّةِ الطفلِ في الأدبِ الحديثِ، مرجعُها عالميًّا إلى فرنسا على يدِ عددٍ من روادِ الأدبِ العالميّ، وذلك في أُخرياتِ القرنِ السَّابعَ عشرَ، معَ ظهورِ أوَّلِ مجموعةٍ قصصيةٍ للأطفالِ تحتَ عنوانِ: contre de mere Ioye، إلى جانبِ عددٍ من القصصِ الكلاسيكيةِ التي لم تكن تخلَّصت بعدُ من الصبغةِ الكلاسيكيةِ للقصِّ للطِّفلِ([26])، ثمَّ انتقلت بعضُها إلى العالمِ العربيّ عن طريقِ الترجمةِ، لتكونَ نموذجًا يحتذيهِ بعضُ روادِ أدبِ الطفلِ في العالمِ العربيّ ككاملِ كيلاني، يستنطقُ فيهِ القيمَ السُّلوكيةَ، والجوانبَ الخُلقيَّةَ، ويستهدفُ تزويدَ الطِّفلِ العربيّ ببعضِ القُدراتِ التي تُمكِّنُه من مواجهةِ تطوُّراتِ الحياةِ.

وقد كانت هذه القصّةَ الّتي تتعاطَى معَ ميولِ الأطفالِ وفقًا لمُفرداتِ الحياةِ الجديدةِ، السّبقُ في اللِّحاقِ بركبِ التّقدُّمِ، في مُعالجةِ قضايَا الطّفلِ العربيّ مِن النّواحي الخُلقيّةِ والسّلوكيّةِ والدّينيةِ، عبرَ مَا تُقدِّمُه لهُ مِن مفاهيمَ جديدةٍ تتجلَّى في بعضِ الحيثياتِ الّتي تتميّزُ تناولِ المُحتوَى القديمِ في صورةٍ جديدةٍ تُلائمُ الجوَّ الحداثيَّ الذي يتفاعلُ معَه الطّفلُ.

المَطلَبُ الثَّانِي

مَصادرُ أدبِ الطّفولةِ، المُؤثِّراتُ، والتّوعيةُ

مِن المعلومِ أنَّ الأدبَ أيَّ نوعٍ مِن الأدبِ لَا يؤدِّي وظيفتَهُ بِمعزلٍ عَن ظروفٍ مُجتمعِه، ومُؤثِّراتِ بِيئتِه الّتي أنتجتْهُ، كَما هُو معلومٌ أيضًا أنَّ المصادرَ والمرجعيّاتِ الّتي يَنبثقُ مِنهَا، والّتي تُشكِّلُ روافدَه ومنبعَ صدورِه، تُعتبرُ مِن أهمِّ الأشياءِ الّتي تُشكِّلُه وتُعطيهِ طابعًا خاصًّا يتمتّعُ بِه، وقد أجَلْتُ النّظرَ فيِ مصادرِ أدبِ العربيّةِ الذي يتصدَّر المشهدَ في مُختلفِ الأقاليمِ والأقطارِ، من تاريخِ نشأتِه إلَى وقتِنا هذا، فوجدتُ أَدبَ الطّفلِ وخصوصًا أدبُ القِصّةِ ينهلُ مِن معينِ الدّينِ والتّقاليدِ المُجتمعيّةِ، والأحداثِ الجاريةِ، ولكلٍّ مِن تلك الرّوافدِ وقْعٌ خاصٌّ بِه وتمثُّلاتُه الّتي تعكسُ صُورتَها عليهِ.

أمَّا عَن استرفادِ مادّةِ قِصّةِ الطّفولةِ مِن الدّينِ، فذلكَ ظاهرٌ أشدَّ الظُّهورِ في بعضِ الأعمالِ التي تناولَتهَا قصَّةُ الطفلِ في انتشارِها المُبكِّرِ معَ بزوغِ فجرِ الإسلامِ، مُتمثلةً في تناقلِ الصحابةِ لأخبارِ النبيّ ﷺ، وسِيرِ أصحابِه التي جعلَت منهَا الأُمَّهاتُ والآباءُ مادَّةً ثرةً يُنمُّن بها الوازعَ الدينيَّ في نفوسِ أبنائهم، ويربطونَهم بصحيحِ الاعتقادِ.

ثمَّ بالانتقالِ السريعِ من عصرِ صدرِ الإسلامِ إلى عصرِ الأُمويينَ بدأت القِصَّةُ تُشكِّلُ نفسَها، وتُعيدُ هيكلتَها، من خلالِ استهدافِها لأغراضٍ أُخرَى سِوى التي كانت تستهدفُها في صدرِ الإسلامِ، حيثُ نَحَتْ منحًى سياسيًا تدعمُ بهِ الفِرقُ المتناحرةُ على السُّلطانِ أغراضَها، وتُقيمُ بها حُججَها، وتُبطلُ حُججَ الخصومِ، وكان الطِفلُ العربيُّ في تلك المعمعةِ من أهمِّ الطوائفِ لمُستهدفةِ بالقصَّةِ؛ لما لهُ من دَورٍ فاعلٍ في مسألةِ التوريثِ للحُكمِ، لا سيما في عصرِ الخليفةِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ، وكانَ يقومُ بعضُ القصاصينَ بهذا الدورِ المهمِّ للأطفالِ والكبارِ؛ لنشرِ الدعوةِ السياسيةِ لبني أُميةَ في أقطارِ المملكةِ آنذاك([27]).

ومن ثمَّ فإنَ انتشارَ وذيوعِ هذا النوعِ من القصصِ، واستهدافِ طائفةِ الأطفالِ بهِ في العصرِ الأوَّلِ كان نتيجةً طبيعيةً لهذا الصراعِ، غيرَ أنَّه لا ينفي إقرارَه لكثيرٍ من القيمِ السلوكيةِ والخلقيةِ التي تضمَّنها الدينُ الحنيفُ، فأدَّى ذلك إلى توارثِ الخلفاءِ هذه النزعةِ، فاستدعوا بعد ذلك عددًا ممَّن اشتهروا بأسلوبِ القصِّ لتربيةِ أبنائِهم وتعليمِهم داخلَ قصورِهم القصصَ القرآنيَّ الذي أثرَى الحياةَ الأدبيَّةَ في عصرِ العبَّاسيينَ، وأثَّر في الأطفالِ تأثيرًا كبيرًا أسهمَ في تعزيزِ النزعةِ الدينيةِ وربطِهم بدينِهم([28])، كما أنَّ استدعاءَ قصَّةِ يوسف (عليهِ السَّلامُ) تأثيرًا شديدًا في إثارةِ الروابطِ الدينيةِ بينَ الطفلِ المسلمِ في أوَّلِ عصورِ القصةِ العربيَّةِ، والقصةِ الدينيةِ المُستقاةِ من القرآنِ ومن كتبِ العهدِ القديمِ والجديد([29]).

وأمَّا عن خصوصيةِ قصَّةِ الطِّفلِ في تناولِ الجانبِ الوطنيِّ والانتماءِ للأرضِ والولاءِ للقيمِ، فإننا نقفُ على ذلك بكلِّ سهولةٍ في قصَّةِ الطفلِ الفلسطينيةِ، حيثُ تناولت قصةَ الطفلِ بشكلٍ نوعيٍّ اختلفَ في قضاياهُ بحسبِ المعاناةِ التي تواجِهُها تحت الاحتلالِ، بإلقاءِ الضوءِ على صورٍ من حياةِ الطفل الفلسطينيِّ في الجرة والتشرد والحرمان والفقر([30])، ومِن ثمَّ يُمكنُ القولُ بِأنَّ لقصَّةِ الطِّفلِ الّتي تسعَى لربطِ الطِّفلِ العربيِّ بهويّتِه ومُستجدّاتِالأحداثِ مِن حولِه، دورًا بارزًا في تفعيلِ دورِه في الحياةِ، وربطِه بملامِح زمنِه.

وفي إطارِ اهتمامِ قصَّةِ الطفلِ بتنميةِ شعورِ الطفلِ بهويتِه ومكانتِه في مُجتمعِه، تأتي – مثلًا قصةُ الطفلِ الجزائريَّةِ في المرتبةِ الأولَى لاستهدافِ خدمةِ تطلُّعاتِ الأديبِ إلى تنبيهِ الطفلِ الجزائريِّ بالسيادةِ الوطنيةِ، حيثُ نالَ اهتمامَ روادِ جمعيةِ العلماءِ المسلمينَ الجزائريينَ، فكانَ ضِمنَ الإستراتيجيةِ التعليميةِ والثقافيةِ للجمعيةِ، ومن الأدباءِ الذين عُنوا برصدِ ملامحِ السيادةِ الوطنيةِ وتزويدِ الطفلِ بلوازمِ شعورِه بالانتماءِ لوطنِه وقضاياه محمد الأخضر السائحي، ومحمد ناصر، ويحيى مسعودي، وغيرِهم([31]).

وفي ذلكَ ما يُثبتُ لَنَا أنَّ هيمنةَ الصّراعاتِ الدّائرةِ في العالمِ حولَ أطفالِنا، مَا ينعكسُ بتأثيرِه علَى القيمِ والسّلوكياتِ والأجواءِ النّفسيّةِ الّتي تصِلُهم بِحدودِ معارفِهم الّتي تسعَى القصّةُ إلَى إكسابِهم نوعًا مِن الإيجابيّةِ نحوَهَا، وهذا مِن مِن الملامحِ البارزةِ في نوعيةِ الكِتابةِ القصصيةِ للطفلِ في واقعِنا الحديثِ، فقصّةُ الطّفلِ ظلّت تتناولُ القيمَ الخُلقيّةِ والسلوكِ الدّينيّ إلَى زمنٍ طويلٍ، وظلّت تتحدَّرُ مِن صُلبٍ واحدٍ لا يُجلِّي عَن صورةٍ تمسُّ الواقعَ المُحيطَ بالطّفلِ إلّا بعدَ هيمنةِ المظاهرِ الحداثيّةِ علَيهَا، فبدأت تستقلُّ بجانبٍ

مِن الوعي بالسّلوكِ الوطنيّ والانتماءِ للأرضِ، ومَا يجبُ على الطّفلِ في مُستقبلِه القريبِ أو البعيدِ نحوَ الوطنِ.

ففي رحلةِ الطفلِ بينَ الانتصارِ والانكسارِ كانَ يلزمُ المبدعينَ أن يُعادلوا بينَ الواقعِ الذي يحتاجُ إلَى دافعيّةٍ قويّةٍ لمواجهتِه، وسلاحٍ معرفيٍّ تُنتجُه محصلاتُ الطّفلِ التي اكتسبَها تعليميًّا وتربويًّا، وبينَ الخيالِ الطُفوليّ الذي يُعالِجُه شعورُه بطفولتِه في مُجتمعِه، وذلكَ ما دفعَ بكثيرٍ مِن الأدباءِ المُنشغلينَ بقضايَا الطفلِ نحوَ إيجادِ حلولٍ بديلةٍ للقصّةِ الشّعبيّةِ الّتي لا تُعنَى – عبرَ تركيبِها وحبكتِها – إلّا بالتّصديقِ علَى القيمِ والعاداتِ والسلوكِ الطفوليّ الذي لا بُدّ مِن التزامِ الطّفلِ بِه؛ لتماسكِ المُجتمعِ الذي يُعدُّ الطفلُ أحدَ أهمِّ مُقوّماتِه، فكانَ في القضايا المستجدةِ علَى السّاحةِ والّتي هيمنت علَى فِكرِ وسلوكِ النّاسِ جميعًا تحديًّا للواقعِ الطفوليّ الذي يجبُ تخطّيهِ إلَى علاجِها.

ومِن هُنا تأتِي معياريَّةُ التّوعيةُ الّتي اعتبرَهَا النّقدُ الحديثُ لأدبِ الطِّفلِ، مِن نتاجاتِ الحداثويّةِ في قصّةِ الطّفلِ، فالواقعُ أنّ البنيةَ التّأثيريّةَ لقصّةِ الطفلِ علَى نفسِه ووجدانِه، لَم تعُد كماَ كانتْ، ففي الماضِي كانَ عُنصرُ الإثارةِ والتّشويقِ في القِصّةِ هو المُعوّلَ عليهِ في غَمسِ الطّفلِ في أجواءِ القِصّةِ، مهما كانَ الموضوعُ الذي تُعالجُه القصّةُ، فبعضُها لَم يَكُن ذا أثرٍ تربويٍّ أو سلوكيٍّ، ورغمَ ذلكَ كانَ مُدرجًا ضِمنَ أدبِ الطفلِ؛ لتوفُّرِ مدعاةِ إدراجِه ضِمَن هذا النّوعِ من الأدبِ، وهو توفُّرُ عاملِ الاستثارةِ الوجدانيّةِ والنّفسيّةِ، أمَّا الأمرُ في القصّةِ الحديثةِ فإنّهُ يُعالجُ موضوعاتٍ تُلامسُ مجموعةً مُتنوّعةً مِن القيمِ المُختلفةِ في شتّى مُستوياتِها: (الدّينيّةِ، والخُلقيّةِ، والاجتماعيّةِ، والوطنيّةِ، والشّخصيّةِ) لِمُساعدةِ الطّفلِ في التّعرُّفِ علَى ذاتِه وَإثباتِ هُويتِه، وتنميةِ قُدراتِه؛ مِن أجلِ مواجهةِ تحديّاتِ الواقعِ والوثوبِ علَى مشاكِلِه، بإيجادِ حلولٍ تناسبُ كلَّ موقفٍ علَى حدةٍ.

الخَاتمةُ

وفِي نهايةِ الدّراسةِ، يُمكنُ إيجازُ أهمِّ مَا توصّل البحثُ إليهِ مِن نتائجَ تُمثِّلُ الحصيلةَ المعرفيّةَ الّتي تضمَّنَها علَى نَحوٍ يُمكِّنُ القارئَ مِن إدراكِ أهدافِه، والوقوفِ عَلَى غاياتِه، وهي علَى نحوِ مَا يلِي:

- بُعدُ الغورِ التّاريخيّ لقصّةِ الطفلِ، في الآدابِ الغربيّةِ الإغريقيّةِ، والعربيّةِ معًا، مِمّا أعطاهَا شكلًا خاصًّا، وملامحَ أكثرَ مقبوليّةً عندَ الأطفالِ؛ لُمعالجتِها بعضًا مِمّا لَا يستطيعُ المُبدعُ مُعالجتَهُ مِن قضايا الطّفلِ إلّا مِن خلالِها.
- تُعدُّ قصّةُ الطّفلِ أحدَ ركائزِ أدبِ الطفولةِ الّتي استحوزت علَى الجانبِ الأكبرِ مِن اهتمامِ المُبدعينَ والباحثينَ؛ لقوّةِ دلالتِها علَى مُرادفاتِ القضايا الّتي تُعالجهَا في مُجتمعِها.

- ترتكزُ القصّةُ الحداثويّةُ في أدبِ الطّفلِ علَى مجموعةٍ مِن المقوّماتِ السلوكيّةِ والخُلقيّةِ والدّينيّةِ، إلى جانبِ الحصيلةِ المعرفيّة الّتي تُضيفُها إلَى مخزونِ الطفلِ في مراحلِ عُمرِه المختلفةِ.
- إفادةُ القصّةِ في أدبِ الطفلِ – حَدِيثًا - مِن وسائطِ التقنيةِ الحديثةِ في بلورةِ ملامحِ التنبُّؤِ بالمُستقبلِ في صورةِ خيالاتٍ، كالتّصويرِ والبرمجةِ، والوسائلِ الألكترونيةِ.
- رواجُ القصّةِ في أدبِ الطّفلِ، وإيثارِ الأطفالِ لهَا علَى سائرِ ألوانِ الأدبِ الأخرَى، نتيجةَ ولُوعِه بِهَا، وانتشائِه بالولوجِ إلَى عوالمِ شخصيّاتِها، وامتيازِها بالاشتمالِ علَى أحداثٍ وأشخاصٍ، وأزمنةٍ وأمكنةٍ قد لا يكونُ للطفلِ بِهَا علمٌ قبلَ قراءتِه للقصّةِ.
- هيمنةُ التّحديّاتِ المستجدّة على العالمِ بِأسرِه خلالِ العقودِ المُنصرمةِ من القرنِ الماضِي، والعقودِ الفائتةِ مِن هذهِ الألفيةِ الجديدةِ، مِن أبرزِ المؤثّراتِ الّتي أدّت إلَى التنويعِ في مصادرِ قصّةِ الطفلِ، وكثرةِ روافدِها.

الحواشي

[1]) دراسات حول أدب الطفل، د. جميل الحمداوي، ص7، دار المجتبى للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011
[2]) المصدر نفسه، ص7
[3])عوامل التشويق في القصة القصيرة لطفل المدرسة الابتدائية، د. إبراهيم محمد عطا، ص3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1994
[4]) عوامل التشويق في القصة القصيرة لطفل المدرسة الابتدائية، ص5
[5]) أدب الطفل والناشئة (قراءة في نماذج من القصة والرواية)، د. إبراهيم محمد الكوفحي، ص16، عمان، ط1، 2020
[6]) أدب الطفل العربي (دراسات وبحوث)، د. حسن شحاته، ص11، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 1991
[7]) المصدر نفسه، ص11
[8]) المصدر نفسه، ص14
[9]) أدب الطفل بين وسائل الإعلام وسلطة المنظمات الدولية لحفظ حقوق الطفل (مقاربة سوسيو لسانية)، د. عواطف سليماني، ص851، نشرة المؤتمر الدولي الأول للجمعية العراقية العلمية للمخطوطات، عدد خاص.
[10]) توظيف الحكاية الشعبية في أدب الأطفال (أزهار العرب أنموذجًا)، ص200، د. بشار إبراهيم نايف، مجلة دراسات تربوية، عدد: 23، 2013
[11]) أدب الطفل وفلسفةُ الحضارةِ (من مرحلةِ الثباتِ، إلى التغيُّر)، د. عبد العزيز وافي، ص101، دار النبراس، الأردن، ط1، 2009
[12]) انظر: مدخل إلى علم النفس التربوي، د. محمود عبد الحليم منسي، 11:115، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 2002
[13]) انظر: مدخل إلى أدب الطفل (مدخل نفسي واجتماعي)، د. محمد السيد حلاوة، المكتبة المصرية للطبع والنشر، الإسكندرية، ط1، 2003
[14]) اتجاهات أدب الأطفال في نهاية الألفي الثانية وبداية الألفية الثالثة، د. محمود الضبع، المقدمة، ص152:153، مجلة دواة، مجلة فصلية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات اللغوية،
[15]) وسائط أدب الأطفال، د. هدى نعمة حمد، ص274، مجلة آداب الفراهيدي، جامعة بابل، العراق، عد: 11، 2012
[16]) المصدر السابق، 282
[17]) انظر: التعليم الرقمي المدرسي لمادة أدب الأطفال بين الحاجة والضرورة، د. سوزان مشير أحمد، 279 : 280، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، العراق، عد: حزيران، 2023
[18]) أدب الطفل في المرحلة الابتدائية، جاسم محمد عبد الحميد، ص253، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2006
[19]) التربية وحكايات الأطفال، رافدة الحريري – بلقيس الحريري، ص 205 – 206، دار الفكر، عمان، ط1، 2009

[20]) انظر: القصص الشعبي للأطفال (النزعةُ الأولى، ومراحل النماء)، سامي عبد الهادي الجاسم، ص114، دار العبيكان، المملكة العربية السعودية، ط1، 2013

[21]) البنية القصصية في أدب الأطفال (سلسلة: الأقحوان، لجميلة زنير)، سعيدة لهلالي، ص7، أطروحة ماجستير، مقدمة لكلية الآداب واللغات، جامعة: العربي بن مهيدي، الجزائر، 2014

[22]) الأدب العربي للطفولة (دراسة تحليلية لأدب الطفل في الوطن العربي)، ص17، دار هبة النيل للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2009

[23]) انظر: كليلة ودمنة، بيدبا، تر: عبد الله ابن المقفع، تحقيق: د. مراد الشامي، دار ألف ليلية وليلة، مصر، ط1، 1999

[24]) انظر: لُغتَي حياتي (الصّف الخامس الابتدائيّ)، وزارة التربية والتعليم المصرية، ص67 – 68، المطابع الأميرية المصرية، 2022

[25]) البنية القصصية في أدب الأطفال (سلسلة: الأقحوان، لجميلة زنير)، سعيدة لهلالي ص8

[26]) من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، الربعي بن سلامة، ص 39 – 40، دار مداد يونيفار سيتي براس، بدعم من وزارة الثقافة الجزائرية، ط1، 2009

[27]) انظر: أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية، جاسم محمد عبد الحميد، ص253 - 254

[28]) انظر: أدب الطفولةِ (النزعةُ الدينية، والواقع السياسي)، إسماعيل الكاشاني، ص165، مجلة العلوم الإنسانية، عدد: 63، جامعة بابل، العراق، 2021

[29]) الماضي المشترك بين العرب والغرب، أ. ل. رانيلا، تر: د. نبيلة إبراهيم، ص37، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عد: 241، 2001

[30]) صورة البطل في قصص أطفال فلسطين، د. وفاء شاهر داري، ص 8 – 9، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، مصر، ط1، 2021

[31]) البنية القصصية في أدب الأطفال (سلسلة الأقحوان، لجميلة زنير)، ص12